الفهرس

1. السّطح 9
2. سيّدة البهارات 17
3. الرجل الذي كان ماشياً يحمل بقجة 23
4. صباحٌ أبيض 29
5. الأميرة 35
6. شخوصُ الكاتبة 41
7. عرّافات شهريار 47
8. المهووس 51
9. زهرة 57
10. بسبع أرواح 63
11. أشلاء صغيرة جدّاً 71
12. الجدار والعصا 77

فكّ التباس . .

خشيةَ أنْ أموت، حبستُ نفسي في الحكاية، وحبستُكَ معي؛ لأني مِنْ غيرك لا حضور لي، ولا معنى للحكاية، كما أنّكَ إذ تكون خارجها تنفلتُ الدّلالة وتتيه، ويتهدّدني الخطر...

وليس هذا كلّ شيء... إذ لا يكفي أنْ أضمن وجودَنا الثّلاثي: أنا وأنت والمعنى، عليّ أنْ أتكفّل باستمرارية تحقُّقِ المتعة... على المُقايضة أنْ تظلّ منطقيّةً ومتوازنة؛ كي لا نجدَ ثلاثُتنا ضرورةً للانعتاق.

السَّطح

لَمْ يَعُدْ ثَمَّةَ (سَطْح)، كما تغيب الأشياء كُلُّها غاب...

مِنْ فوق سوره تطلّ «خيرية» السمراء بابتسامتها المميزة وتنادي علينا، فنصعد أنا وإخوتي راكضين إلى سطح دارنا المقابل له؛ لنتقاذف معها كرات الثلج ثم نسير بحذرٍ لِنُطِلَّ على الشارع ونقذف المارة به ونخبّئ رؤوسنا.

تنسى ضاحيتنا في أيام الثلج عجرفتها، وتتواضع قليلا، فيتواطأ أهلها ـ لا واعين ـ لصالح هذه الكُرات، يتقاذفونها دون أن يشتكي أحدهم من الآخر.

«خيرية» ابنة جارنا أبي محمد، تصغر شقيقات خمساً حباهنّ الله البياض وخضرة العينين والكلام الهادئ الرقيق، وميّزها بالسّمار

والشيطنة وخِفّة الدم والصوت الجهوري، ولهنّ شقيقان للكبير منهما أولا د بعمرنا.

يحلو لأخي عليّ أن يلاحق انتصار حفيدة أبي محمد من ابنه الكبير، يضربها بالعصا باعتباره شرطيّاً في لعبة (الشرطي والحراميّة)، يحمرّ جسدها من ضرباته الموجعة، فتروح باكية إلى أمها، وأهرب إلى البيت جارّة أخي المشاكس.

كبرنا قليلا، ولم نتجاوز عمر اللّعب والشّغب، سافر محمد وبناته إلى الضفة الغربية. ننتظر مجيئهم إلى بيت جدّهم بفارغ الصبر، موسم الصيف بالنسبة لنا عيد؛ إذ يُسمح لنا باللعب مع أولاد الجيران وبناتهم في الخارج إلى وقت متأخر.

بيوت الضاحية قليلةٌ متناثرة، مدى مفتوحٌ لكل أحلامنا الصغيرة، نفرد الأحلام في الفضاء الرّحب، نركض ونكتشف بقايا الآبار، وبقايا القنابل المنسية، ونجتاز حقول القمح ـ التي ما يزال مُتّسَعٌ لزراعتها إلى جوار الخَسّ والفقّوس والحاملة [1] (قبل أن يغزو الإسمنت فضاءنا) ـ فيلاحقنا المزارعون بالحصا والعِصيّ.

بعد قليل، بدأت الفتيات يدخلن مؤسسة لم نفهم وظيفتها حينذاك، يقولون إنها مؤسسة الزواج. غادرتْ بنات جارنا: بعضهنّ إلى أمريكا، وأخريات إلى الضفة الغربية، وغيرهنّ إلى جبال في عمّان لم نحفظ أسماءها.

(1) الحاملة : الاسم الشّعبي للحمّص الأخضر قبل أن يجفّ.

ظلّ السطح موئلنا لوقت طويل حتى غابت خيرية كذلك، وإخوتي صار لديهم اهتمامات أخرى، ولم يعد أمامي غير الحَمَام أقضي ساعات طويلة في مراقبة أسرابه، تموج في سماء سطحنا الزرقاء، تتداخل وتتباعد في لوحة لم أجد أجمل منها حينذاك. وصار ثمة لغة مشتركة بيننا، بتّ أهذي معها وأضيع، ولا أعود إلا على صوت أمي تطلب مني أن أَكُفَّ عن القراءة وأنزل لتناول طعام العشاء، كنت أنتبه عندها أن الشمس بدأت تغيب وأنني لم أتجاوز في قراءتي بضع صفحات.

تزوجت انتصار في الضفة الغربية ولم تبلغ السادسة عشرة، وظلّت ذكراها مرتبطة بعصا عليّ، غير أن سلامها لم ينقطع حتى عليه، تصلنا أخبارها مع أخبار الحجارة هناك؛ حيث الحياة غير الحياة ونوع الصخب والفوضى والروتين غير صخبنا وفوضانا وروتيننا.

لم يبق من أبي محمد غير صورته محمولا على أكتاف ستة رجال، عجبتُ لعدم قدرتهم على حمله، وهو القصير النحيف... أول جثة أراها بعيني، ولم أفهم أنّ للحياة سرّا وللموت لغزا.

يبدأ أبو محمد يوم العيد بشراء هدايا لأحفاده، فنغبطهم عليها دون أن نعلم أننا أكثر منهم حظّاً، صحيح أنّ جدَّينا كانا قد توفيا، غير أننا كنا نحصّل (عيديّة) عالية القيمة من الأب والأعمام والخالات، فنتمكّن من شراء ما شئنا من الألعاب والسكاكر.

غاب أفرادٌ سكنوا تحت سطح الجيران واحدا واحدا، وظلّ الوجه

المجعّد لأم محمد يُذكِّرنا بالأعياد، وبالعصا، وبالآبار، وبالثلج... إلى أنْ سافرت بدورها لتقيم عند أولادها في الضفة الغربية، ولم نرها إلا بعد سنوات عشر حين مرت من هنا في طريقها إلى الحج، كأنما تودع الدار والذكريات لمرة أخيرة... وربما لاحظتْ حينها امتداد الضاحية والشوارع الإسمنتية وأعمدة الكهرباء والهواتف والمحلات التجارية الكبيرة والعمارات المترامية هنا وهناك.

شَحُبَ بيتُ الجيران في غيابهم، وهرم بسرعة عجيبة، تفسّخت جدرانه حزنا، وتثاءبت أعشاب حديقته طويلا... وظلّت شجرة التين.

لم أعشق التين يوما، يحضره والدي من السوق المركزي بكميات كبيرة، لا أذكر أنني تذوقته مرة، قناعة لازمتني لا أدري من أين تسرّبت إلى ذهني بأنّ تين السوق يمتلئ دودا، عدا تين شجرة جيراننا، أقطف الحبة منها بعد تسلّقٍ ومعاركَ مع الأغصان فألتهمها دون محاولة قسمتها والنظر في داخلها.

ظلّت سورة (والتين والزيتون) تذكِّرني بتينة أم محمد، وقد أسميناها على اسمها؛ لأنها قَدِمَتْ بها من الضفة الغربية، وزرعتها مذ عقود ثلاثة عند إنشاء بيتهم... التينة تشبهها تماما.

انصرم زمن طويل، وغصّت الضاحية بأجيال جديدة، بيوت الضاحية كثيرة متراصّة. تفلّتَتْ من الذاكرة وجوه بنات جارنا وأبنائه،

بقيتْ صورٌ قليلة جدا: تجاعيد وجـــه، وجثة محمولة، وكرات ثلجيــة .

والسَّطْح الذي ظلّ إلى زمن قريب ذاكرة لنا ـ بما عليه من بقايا أخشاب، وخزّانات مياه، وآثار أرجوحة أقيمت على عمودين إسمنتيين، وخزانة حديدية صدئة ـ لم يعد موجودا؛ حضر محمد ابن جارنا من الضفة الغربية، وجاء بعمّال يتقنون الهدم، فخلعوا البيت من جذوره، ثمّ عاد.

حاولوا جاهدين خلع جذور التينة عبثا، لم يَبْقَ سِواها، إلى جوار فضاء مفاجئ أخذ يملأ نافذة مطبخنا بالشّمس...

سيِّدة البِهارات

فاجأها صوت المنبِّه، ضغطتْ على واحد من أزراره ليصمت، عاد بعد عشر دقائق فرنّ من جديد، انتزعت جسدها متكاسلة من فراشها، وجلست على طرف السرير، المشهد الأخير من الحلم ما يزال عالقا في ذهنها، سيصنع هذا المشهد يومها، ابتسمتْ، ونهضتْ... لو أن المنبّه تجاهل رنينَه هذا الصباح، لأعرف ماذا كان سيفعل بطلي حين دَنَا، ما ألذّ بعض الأحلام! قالت في نفسها منتعشة.

اتخذت سبيلها إلى عملها، كعادته: الشارع مزدحم، وسير المركبات بطيء، غير أنها عوّدت نفسها على تلقي الأمر بأريحية، وبلا «نرفزة». تدير مفتاح المذياع، فيأتي صوت المذيعة مفتَعلاً، وهي تدعو إلى الابتهاج بالحياة والتفاؤل مع كل صباح، ثم تروح بانسياب لتعداد المصائب التي يعجّ بها الكون، وآخر الحروب والموتى. تدير المفتاح

لتسمع أغنية توقظ فيها حروبا عاطفية قديمة، كادت الكآبة تهاجمها، بَيْدَ أنها تذكرتْ المشهد الأخير في حلمها.

فور دخولها بوابة العمل، رَمَتْ خلْفها كلَّ هواجسها، هكذا علّمت نفسها، كلُّ بوابة لها خصوصياتها، لذا عليها أن لا تخلط الأوراق إطلاقاً. «صباح الخير» قابلتْها زميلتُها، وبابتسامة معهودة ردَّتْ التحية وانطلقت إلى مكتبها؛ لتستكمل مع فنجان القهوة قصص الأخبار الكئيبة التي ابتدأت سماعها في مذياع سيارتها... عليها تفَقُّد الجديد في الصحف وعلى مواقع «الإنترنت»؛ لتتمّ الكتابة عن القضية الرئيسية التي ستتصدر صفحة الجريدة في آخر الأسبوع.

يا للصّحافة الأسبوعية!! همهمتْ في نفسها، طعام «بائت»، نضفي عليه بهارات كثيفة؛ لتضليل القارئ عن نكهة القِدم والعفونة، وإيهام الجائع بطزاجته. «لا تنسي بعض البهارات»... هكذا يستقبلها رئيس التحرير عند الإيعاز بكتابة موضوع جديد.

مهارتُها في التبهير والتعبير وصلتْ حدود الاحتراف: قليلٌ من «الفلفل الأسمر»، وبعضُ «القِرْفة»، ورشَّةٌ من «البهارات المُشَكَّلة»، وبِضْعُ حبّاتِ «هال»، وحزمةُ ورقاتٍ من «الغار»...

ـ المهمُّ النّفس الطيّب يا أستاذ، هكذا تردّ عليه، وتضحك في سرّها.

وعلى طاولة المطبخ، تصفّف البهارات المتنوعة استعداداً لطبخة

«المقلوبة»، يمدّ أخوها رأسه من الباب متشمِّماً:

ـ أكثري من البهارات...

ـ المهم النّفس الطيّب . هكذا تردّ عليه، وترفع صوتها مدندنة: هذه وظيفتي.

مساءً، مع صديقاتها، يتسامرن في أحد المقاهي المتناثرة غرب عَمّان، يتغامزن ويتلامزن على المارّة، يثرثرن ويتضاحكن. واحدة منهن تسرف في توصيف حكايتها مع خطيبها قبل الارتباط، وترسم أمام الأخريات قصة عشق باهرة، وتقصّ وتلصق، وتشرّق وتغرّب. والأخريات يشهقن ويغمضن أعينهن حالمات بحكاية مشابهة. نظرْنَ فجأة إليها، صامتة متأمِّلة، قلن: ما بالك؟... لا شيء، فقط أفكر في القضية الصحفية التي أشتغل عليها... قلن قبل أنْ يَعُدْنَ إلى الثرثرة الأكثر تشويقاً: لن تعوزك الخبرة والمهارة، فأنت سيدة البهارات، وتعرفين الأنواع المطلوبة لكل طبخة.

ضحكتْ، غير أنها منّتْ النَّفْسَ بانتهاء هذا اليوم الفائض بمطيِّبات الطعام، لتروح بسرعة باتّجاه ذلك الحلم...

الرجل الذي كان ماشياً يحمل «بُقْجَة» (2)

(2) البقجة : هي كيس قماشي.

يمشي، يمشي، يمشي،...، يذرع شارع «الملكة رانيا»، يتفتّق عنه دوّار «الداخلية»، ويحتضنه الشارع وصولا به إلى دوّار «صويلح». يمَّحي فجأة ليظهر عائدا باتجاه «الداخلية»، في رحلة مشي لا بَدْء لها ولا نهاية.

يمشي، يمشي، يمشي،...، ألمحُهُ من نافذة الحافلة، من نافذة التاكسي، من نافذة أنفاسي ...

نادرة هي المرات التي رأيته فيها متّكئاً على جنب الطريق، أو سور بيت، أو مصطبة. متوحدٌ، صامتٌ، متلفِّعٌ بغموضه، متداخلٌ بعوالمه، تنظر في عينيه فلا تجده، تستغرب كيف يحرسه الله من زلات الطريق وعثراتها، وهو يقطع الشوارع نائما أو شبه نائم، وتتساءل: هل نحن

النائمون حقّاً، وهو الأكثر صحواً منا!!

يبدو ستينياً، ولعله أصغر من ذلك، شعره أشعث أبيض، متوسط الطول، صاحب كرش كبيرة، لم تذبها كثرة المسير، يلبس منذ أزمان بعيدة «بلوزة» بنّية كلح لونها، مترهّلة، تخرج على غير انتظام من بنطال أسود ينتهي بحذاء شتوي، يبدو عمره من عمر صاحبه، لا يفارقه في أي فصل من الفصول الأربعة. الكائن الغريب وحذاؤه يتمشّيان منذ أَمَدٍ في شارعٍ واحد، لا يثقلهما سوى «بُقْجة» قماشية محضونة بين الذراعين، كما لو كانت رضيعاً ملفوفاً بشرشف صغير، يحنو عليها، يخشى عليها السّقوط، وإذا ما أمال ظهره بمحاذاة سور، ظلّت «البُقْجة» على مقربة مِن صدره، لا يتركها إلى جواره أبدا...

تأملتُها مراراً، تساءلتُ عن محتواها، وما سرّ الحرص الشّديد عليها؟ كم حيَّرتني «البُقْجة»! وكم حيّرني صاحبُها! من أين يأتي؟! إلى أين يروح؟! كم وددتُ أن أوقفه، لعلّي أسمع صوته فأخمِّن شيئا ما من نبرته، هل له صوت؟ ما الذي يحمله في «بقجته»؟ ما الذي يحمله في جعبته؟ من أي زمن جاء، وإلى أي زمن يمضي؟؟

ظلّت أسئلةً متكررةً هائمةً. جبانةً كنتُ، بِلا شَجاعةٍ تكفي لأوقف رجلا غريباً وأسأله، رغم أني أحترف السؤال، وأمتنع عن الإجابات جميعها.

ظللتُ أبداً مأخوذة إلى جوّانيتي، ظللتُ مشغولة عن رجل الشارع

الغريب، الماشي الأبدي، الماضي من الأزل باتجاه المجهول.

جرّبتُ بضع مرات أنْ ألاحقه، أمضي خلفه متهادية، مسافة كيلو متراً أو اثنين، أهمُّ ـ إذا ما دنوتُ ـ بسؤاله، أنتظر أن ينظر خلفه، يمينه، يساره، عبثاً. وحين أيأس، ويبلغ مني الجهد مبلغه، أوقف سيارة، وأعود.

حلمتُ به مرات، تحدثتُ عنه إلى أصدقائي، فلَمْ تَبْدُر منهم دهشةٌ أو فضول، واستخفّوا باهتمامي برجل يمضي أبداً مشْياً على أقدامه يحمل «بقجة».

لم أعد أتحدّث عنه، حاولت أن أتناساه، درّبت نفسي أن أراه وكأنه كائن اعتياديٌّ مألوف، أو جزء من شارع أساسي في العاصمة، درّبتُ نفسي حتى على عدم الانتباه، تماماً كما يحدث أن تألف مبنى أو شجرة في شارع ما لدرجة أنك تنسى وجودهما.

كدتُ أنجح، لم أعد أفكّر به ولا ببقجته، حتى توقّف «التاكسي» في يوم قرب دوار «المدينة الرياضية»، زحام شديد، المَرْكَبات تتبارى في إطلاق زواميرها المزعجة، سيارات شرطة وإسعاف يصمّ ضجيجها الآذان، السائقون يتساءلون، يحاولون معرفة سرّ الازدحام وتوقُّفِ السير.

شيءٌ ما دفعني لفتح باب «التاكسي» والنّزول، وجدتُني أركضُ... عددٌ من الرجال يطلبون من المتجمهرين التراجعَ إلى الوراء، تدافعتُ

مع المتدافعين، وأَفْلَتُّ ممّن يحاولون صدّي، وهناك تماماً، رأيتُهُ ممدّدا، ورأيتُ «بقجته»...!! كانت منفلتةً من يده، وقد تدحرجتْ مبتعدةً بضعةَ أمتار...

أسرعتُ... حدّقتُ فيها... انحنيْتُ... تلفَّتُّ بهدوءٍ حولي... ثمّ حملتُها...

وَرُحْتُ أمشي...

صباحٌ أبيض

رنّة هادئة من «هاتفي النّقّال» على يمين سريري، فتحتُ عيني نصف فتحة، الغرفة معتمة إلا من نورٍ جانبيّ خافت، أضيئه في الليل كي تَخفَّ الحلكة حولي. نظرتُ في الساعة، الخامسة إلا ربعاً. أكثر شيء يزعجني هاتف أو رسالة في وقت متأخّر من الليل، أو في فجر باكر، دوما أتردّد قبل استقبالهما، وأستعيذ بالله من شرّهما.

بلعتُ ريقي، فتحتُ الرسالة على قَلَق، زاده أنَّ الرسالة مرسلة من أمي. «عمّك أبو سامر أعطاك عمره فجر هذا اليوم». كمن لم يستوعب أعدتُ قراءة الرسالة مرات عدة، أغلقت الهاتف، تأمّلتُ قليلاً عَتْم الغرفة، وبلا وَعْي امتدت يدي نحو «أباجور» النافذة ورفعته قليلا، الثلج يتساقط متهادياً، وكثيفاً، ومدهشاً أن يأتي في وسط شباط تماما.

طويلاً تأملتُ بياض الثلج المفاجئ، القطن يغطي الأرض الفسيحة حول بيتي، الغرفة صامتة وباردة، قلبي بارد، كفّاي باردتان. فتحتُ الهاتف ثانية، قرأتُ الرسالة مرات أخرى.

عمِّي!! قلتُ، كأني انتبهت!! عمِّي... كأني استيقظتُ الآن من نومي...!!

النعاس يقاوم فُجاءة الخبر، السّواد يعاند البياض المحيط ببيتي، الذُّهول سادرٌ في غيّ جسدي، روحي تشيخ، تغفو عيناي، تنفتحان ثانية، هل أحلم؟ وجدتُ ظهري مسنوداً بوسادة إلى السرير، نظرتُ إلى جانبي، لمحتُ الهاتف راسخاً في شموخه، تناولتُهُ، فتحتُهُ. رسالة أخيرة في البريد الوارد: «عمّك أبو سامر أعطاك عمره فجر هذا اليوم». قطنٌ أغرق قاعدة النافذة بالبياض، وقلبي حائر: أيزيح البياض الذي يعلوه ويرتدي السّواد؟!

ممسكاً بذراعَيَّ، رِجلاي مُتَطوِّحتان في فضاء المكان، يؤرجحني فيميل جسدي أقصى اليمين، ثم يروح بحركة من ذراعيه إلى أقصى اليسار، وأنا في المرة الأولى أتضاحك، وفي الثانية أصرخ خوفا. تحاول أمي سحبي من بين يديه إذ يشتدُّ صراخي، فيعلو صوت ضحكه وصخبه، هل خفتِ ـ يقول ـ لا تخافي. وأمي تناديه: كفى، كفى يا أبا سامر، لقد ارتعبت البنت!!

تقبض على خصري، وتشدّني منه بقوة، تغسل وجهي المحْمَرّ

بالماء البارد، تضعني في حجرها، وتمشّط شعري الناعم الذي تناثر إثر تحليقي بين يديه، تعقده بشريط أبيض، وتبقي منه جزءاً طويلاً يتدلّى.

أتأمّل البياض في الشارع، أهمّ بإنزال «أباجور» النافذة الأبيض...

يحبّ الستائر البيضاء، لم يهمّه تعليق الآخرين حول هذه الستائر التي تشي بالمستشفيات، وأسرّة المرضى، ويحبّ الوردَ أبيضَ أبيض، يغضب حين أَتَفَلَّت من قبضة يده ونحن نسير على الأرصفة، راكضةً باتجاه ياسمينة تتدلى أغصانُها خارجَ سور ما، أقطف بضع زهرات، أُسْرِعُ، أمدّها نحوه، فأمحو بذلك غضبه .

أكان قاسياً... طيباً؟! .

تقول الطفلةُ : طيباً كان ولطيفاً. تقول المرأةُ ـ وقد عَبَرَني شريطٌ من الذكريات المتناقضة ـ : قاسياً غَدَا وغريباً.

مَنْ كان؟ أتساءل!! مشاهدُ الطيبة مرّت خاطفة من صفحة ذاكرتي، مرّت كحلم له بطولتُه، تَمَلْمَلْتُ في فِراشي غيرَ قابضة على انفعال محدّد، حائرةً بين العتمة في الغرفة والبياض خارجها.

ظللتُ في حَيْرتي، أتساءلُ عن العمر الذي أعطاني إيّاه عمّي، حتى اكتشفتُ أنَّ الصباح صار أبيضَ أبيضَ لدرجة السّواد.

الأميرة

أورثني الصّمْتُ سحراً عجيباً، لم أدركه إلا حين نبّهني إليه مَنْ سُحروا، ثمّ تجرّأوا على الاعتراف بوقوعهم فيه.

المسألة ابتدأت بِفَقْدِ الأميرة لصوتها ذات حادثٍ أصابها بالصّمم. تعطّلت إحدى حواسِّها الهامّة التي يُفترَض احتياجُها الدائب لها؛ لإدارة شؤون مملكتها.

قرر طبيبي أنّ عليَّ كتْمَ السرّ عمَّن حولي، والتّظاهر بالامتناع عن التواصل نُطْقا عبر أي طريقة، وبكل ما أوتيتُ من حجج، والأَفضل أَنْ لا يعرف العامّةُ بإعاقتي المفاجئة؛ كي لا يتجرّأوا على تجاوز سلطتي التي أديرها بالصوت المَهيب الرّزين.

صار بصرُها حاسّةً رئيسية، تستند إليه في التقاط كل ما يحيط بها،

وفي بثِّ كل ما تشاء إرساله لمن حولها. المشكلة في قدرة الآخرين على فَهْم اللغة الجديدة التي تتواصل بها أميرتُهم، الكل يحدِّقُ في عينيها، لا تلجأ كثيراً للإشارات عبر اليدين، تستعين بهما فيما يعجز الآخرون عن استيعابه، أو لأوامر محددة تنطوي على طلبٍ؛ كالخروج والابتعاد أو التقدم والاقتراب... الكل يحدِّقُ في عينيها.

تلذذتُ صمتي، تخفّفتُ من أعباء كثيرة منوطة بي، شعرتُ أنَّ السلطة صارت ممسوكةً أكثر بطريقة ما، الصمتُ الذي يتأجج حولي حين أرسل عينيّ باتجاه الرعية لأبثَّهم خطابي ثمّ أمضي، يترك جلالاً عجيباً، وهالة كبرياء، وهدوءاً لم تعد تطالب به أبواقُ جيوشي الحارسة، ولا مُكبِّرات أصوات العاملين في دواويني.

سَرَتِ الدهشة بين العوام في المرة الأولى، بطيئة كدبيب النمل، تنهش العقول الخفيفة، الأميرة تخاطبهم، وعليهم أن يستوعبوا كلَّ كلمة تقولها، تُحَدِّق فيهم، ويميل بؤبؤ عينيها بهدوء شفيف بينهم، ينكش البعض آذانهم، لعل شيئا عَلِق بها يحول دون سماعهم الخطاب، على استحياء يشير بعضٌ آخرُ إلى الآذان في محاولة لإيصال فكرة أنّ الصوت غير مسموع، بعضُ الخاصّةِ يُمَرِّر ورقة ـ بسريّة تامّة ـ تطلب رَفْعَ صوت الميكروفونات؛ فالصوت معدوم.

وفور انتهائها، انفتحت المجالس العامّة والخاصّة، والفضائيات على اختلاف اختصاصاتها، على تحليلات متنوعة تحاول إقامة مقاربات

لخطابها: فَهْماً وتحليلاً وقراءة لبنيته ومضامينه، كما أفردوا فقرات لتقديم رؤىً في سرِّ تشكيله الجديد، وبَيْن البرامج المتنوعة بَثّوا ردود فِعْل الجماهير عبر لقاءات صُوِّرتْ في شوارع مختلفة، وأماكن شتّى كالمقاهي والمطاعم والنوادي والأسواق.

في صباح اليوم الثاني، فاجأتني الصحف اليومية والصفراء بتصدير صفحاتها بأبرز ما التقط الإعلاميون الخبراء! من قضايا مهمة تضمّنها خطابي، أو أحال عليها، أو ألمح لها برمز أو بيان. لم يكن أمامي بدٌّ من الضحك العنيف، رميتُ جسدي فوق سريري الحريري، وقلبتُ ساقيّ إلى الأعلى، وأخذ بَطْني يهتزّ مِنْ شدّة القهقهة، ... ، إذ كيف استطاعت الصّحفُ الاحتفاءَ بفلسفتي العجيبة التي ندَّت عنها عيناي ولساني صامت؟! ومِنْ أين أتى المتحدِّثون والمحلِّلون بكلِّ ما أَدْلَوا به عن خطابي؟!

.....

.....

.....

في جلسة الأميرة الأخيرة مع طبيبها، بشّرها بأنّ صوتها سيستعيد إمكانياته قريبا، وستستأنف حياتها كالسابق، نظرتْ في وجهه مترددة، أتفرح أم تحزن!! فهي لم تَعُدْ تذكُر نبرةَ صوتِها، لعلَّها نسيته، لم تعد تأبه بوجوده أو عدمه.

بكت الأميرةُ في حجرتها...

حين حاولتْ أنْ تغنِّي، وخرج صوتُها بهيّا ورائقا، لم تعرف نفْسَها، شعرتْ أنها ليست هي، وأنّ شيئاً خارجاً عنها يملأ الحجرة.

وحارتْ... بِمَ تقابل رعيَّتها؟! بصوتها أم بعينيها؛ فقد اعتادتْ صمتَهم الذي يتلاقى مع صمْتها دون حاجة لتهديد أو إنذار...!!

شخوصُ الكاتبة

- 1 -

«**لحظةُ المكاشفةِ تأتي، لا محالة**»، قالت. ونهضتْ متقافزةً من سريرها...

ما هذه الحياة التي تدبّ في صدرها فجأة هذا الصباح؟! الشمس أيلولية، ولم تنتظر مدى حياتها أيلولاً محمّلاً بالقصص، كل ما تعرفه هو (آذارات)، كانت مذيّلة دوماً بالنهايات الأكيدة لقصص عشق وهمية، و(نيسانات) كاذبة، لم تعترف قطّ بها؛ فطالما عدَّت نيسان شهراً مارقاً، خارجاً عن سَطْوة العام، بل مَحْض أكذوبة، «ليس أول نيسان كذباً، كل نيسان كذب»، ولابّد ـ كما تصرِّح دوماـ من حذفه من قائمة الشهور.

تضحك من نفسها، تعرف تماماً كيف تراوغهم، تقهرهم... في

الحَكايا، وفي الأحلام حَسْب، أما في الحياة، فهي المقهورة أبداً.

أنهت ارتداء ملابسها، خرجتْ، «**ثمة صباحاتٌ بلون القمح، وأخرى بلون القمح المخلوط بالعسل، كم قلبي شاسع لأعشق أكثر من وجه في آن**». مضتْ في عملها، ومضت آلةُ عقلها التي لا تنفكّ عن الدّوران: «**لن يسلموني إلاّ إلى وَهَنٍ وحزن إذا مددتُ يديَّ لهم... لن يكونوا سوى حكايات أسطّرهم لغةً، ومِنْ ثَمَّ أشنقهم في الحقيقة**».

إذا اعتادت فكرة الطمأنينة، من أين ستكتب القصص؟! لابدّ أن تظلّ موهومةً بأنها فقدت شيئاً كبيرا، فَقْداً لا يشبهه فَقْد، لتكون «نيتشه» ، «**لا ... لا ... للطّمأنينة**» .

قذفَتْ كتاباً من يدها، وتساءلتْ: «**أهكذا يتكلم المرء يا زرادشت؟؟**».

«**أريد أن أذبحكم كتابة**»، قالت لهم، وراحتْ تخطّ سطوراً أفقيةً وعموديةً على بياض الصفحة.

تتلذّذ إذن بتعذيبهم، تبكيهم ربّما وهي تكتب وتكتب، ولا تمنحهم فرصة التقاط أنفاسهم.

مُقْتَرَحٌ أول ـ في الحقيقة هم اختاروا نهاياتهم، تعترف للمرآة المجاورة، وتضع النقطة الأخيرة في أسفل قصتها، لَمَحَت انعكاساً لصورة قلم يُقذف إلى أعلى وحِبْرٍ يتناثر، تراجعتْ إلى الوراء، كان رذاذٌ يهطل من سقف الغرفة، أسود أسود. وإذ أغادرُ لمحتُها تخربش في أعلى

القصة «الغيم الأبيض لا يأتي أبداً بالمطر».

مُقْتَرَحٌ ثانٍ ـ «في الحقيقة هم اختاروا نهاياتهم»، هكذا قالت وهي تضع النقطة الأخيرة في أسفل قصّتها، تقذف القلم إلى أعلى يتناثر الحِبْر، رذاذ أسود يهطل من سقف الغرفة.

وتعنون قصتها، الغيمُ الأبيض لا يأتي أبداً بالمطر ...

- 2 -

قال : ينقصك يا عزيزتي أن تحبّي نفسك قليلا.

ظلَّت هذه الجملة تميمتها، حفظتها عن ظهر قلب، لن تكذب عليكم، حاولتها مراراً، لعلّها طبّقتها بما فاض عن الحاجة، وربّما يئست من المحاولات.

قال «ينقصك يا عزيزتي أن تحبّي نفسك قليلا»، وغادر.

.....

.....

قال : من حسن حظّنا (أحياناً) أنْ لا تغدو الأحلام حقيقة،...، الواقع (أحياناً) أجمل .

ابتسمتْ، وتجنَّبت النظرَ في وجهه، وراحت تكتب قصصاً عن عشّاقٍ راحوا، وأوطان محتلّة.

تنويه ...

ولّما كنتَ مستحيلا، كان عليَّ أن استبدل بكَ ما يورث شطراً من روحي شطراً من الرّاحة، فكانت الكتابةُ المعادل الموضوعيّ لك.

لم أستطع أنْ ألملم ذاتي إلا بعد أن تجسدتَ لي لغة، ارتحتُ لّما ملكتُكَ متماهياً بكلامي، ضَمِنْتُ حينها ألا أموت، وأن أكمل ما تبَقّى من زمني.

منذ ذاك الحين لم أرك، منذ ذاك الحين لم أتوقف عن رؤيتك: كنتَ بطل قصصي المتفرِّد، كنتَ الراوي أحيانا والمرويّ أحياناً أخرى، كما تكرّر أن تكون المرويّ له .

- 3 -

أنْ تحكي يعني أنْ تنقذ نفسك مِنْ موت ما، أنْ تسرد يعني الوقايةَ من الغياب، لذا قررتُ أنْ أحَقِّق حضوري، أنْ أجعله حضوراً سرمديّاً.

أُسقِطَ في يدي، كانت القصةُ قد سبقتني، وحيدةً ظللتُ أراود اللغة، ولأنها تَأَبَّتْ إلا أنْ تظلَّ مُراوِغة، قررتُ أنْ أفتح النهايةَ على مصراعيها...

.....

.....

.....

عرّافات شـهريار

في الليلة الأولى بعد ألف ليلة وليلة، أي في الليلة الثانية بعد الألف، قرّر شهريار أنْ ينفّذ ما أبطنه من رغبة في التخلّص من شهرزاد، وإنْ استطاعتْ تأجيل قَتْلِها قرابة عامين وتسعة أشهر، تلذَّذَ فيها بحكايا الحُبِّ والجنّ والساحرات، إلا أنه خشي على رجولته من هذه الخديعة، فعاد إلى مستشاريه، كانوا مغتاظين من شهرزاد؛ التي سلبت دورهم ومكانتهم في المملكة، وسيطرت على عقل شهريار وسَطْوته طيلة ذلك الوقت، مما أدّى إلى انصرافه عنهم مُغاضِبا، لا يسمع كلمتهم، ولا يأخذ بمشورتهم .

تناوبوا عليه يوما بعد يوم يحذّرونه مغبّةَ قصص زوجته، ويزيّنون له بهجة الدماء المنثالة من عنق امرأة جميلة تقصّ الحياة وتلوّنها له.

قالوا: قالت لنا العرّافة ...

صرخ: آتوني بالعرّافة...

[يا مولاي، ما أَنْ يكتمل القمر في مطلع العام الثالث، وما أن تأتي الحكاية الخامسة والتسعون بعد الألف؛ حتى تفقد رجولتك، عندها ستعوي مثل ذئب في ليلة ماطرة، وستنبعث الروح في نسائك المقتولات، فيأتين راجلات، متزيّنات بحليّ الجنيّات، وسيرقصن على جثّتك، وهنّ يأكلن الكرز رقصة «زوربا»...]

استلّ شهريار سيفه، وقطع رقبة العرّافة، وأَمَرَ رجاله بقتل كلِّ العرّافات في المملكة، وركض إلى غرفته حيث كانت شهرزاد تسوّي السرير، وتُخفت الأضواء استعداداً لقصّ حكاية جديدة .

دخل ونيران الغضب والخوف والجنون تشتعل في روحه، يده تضغط على مقبض السيف، أنفاسه عالية حارّة تتلاحق، ذهب باتجاهها، تُسْنِدُ ظهراً عارياً إلى الوسادة، تَمُدُّ قدمين بيضاوين على السرير.

رفعتْ رأساً يحمل فماً باسماً، وعينين ضاحكتين، وبدأت تقصّ حكاية العرّافات المهدورة دماؤهنّ ...

تضاءلَ شهريار... تكوَّرَ... سقطَ السَّيفُ من يده...

وراح زاحفاً على يديه ورجليه عاوياً باتّجاه السّرير.

المهووس

ينفتح المشهد على ضباب كثيف، تكاد معالم الغرفة تضيع فيه، دخان متراكم إثر التدخين لساعات متواصلة دون تهوية، النافذة والباب مغلقان، فناجين القهوة متناثرة، مدلوقة دون التفكير بإزالة آثارها، الرّكْوة مائلة على الطاولة، وقد زلّت ما فيها وجفّت، المنافض تكدّستْ فيها بقايا السّجائر وأعقابها، الكتب والأوراق مبعثرة على المكتب والأرض والمقعدين الإضافيين في الغرفة، السّتارة مزاحة لشبر واحد عن النافذة، خزانة الكتب ذات الواجهة الزجاجية تعجّ بالغبار والفوضى، السّجادة الصغيرة قبالة المكتب مَثْنِيَّة وموضوعة بشكل عشوائي، عبوات المياه المعدنية فارغة بأحجام متنوعة قرب طاولة منخفضة وُضِع عليها غاز كهربائي دائري صغير.

يقف خلف المكتب منحنياً على أوراقه بتوتُّر، يُدخِّن، يكتب، يضغط

على لوحة مفاتيح الحاسوب، يتنقل بين هذه الأشياء بعصبية، يتوحّد معها، انشغال لا يعي معه ما الذي يجري في العالم خارج الغرفة.

ـ عفوا، أيّ عالم هذا الذي تتحدثين عنه! العالم ما أخلقه أنا سيدتي.

يعود يَخُطُّ بقلمه شيئا ما، لِمَ لا يجلس؟! المقعد ذو العجلات ينخفض ويرتفع حسبما يشاء، وله ظهر مريح، فلماذا لا يجلس؟! أحاول الاقتراب قليلا، لو ألقيتُ التحية مثلا.

ـ أهلا، أهلا... تفضّلي لكنني مشغول، عليكِ الانتظار حتى أنهي ما بين يديّ من عمل.

لَمْ أُلْقِها بعد...!! يكتب شيئا، ثم يَرُدُّ على رسالة وصلته للتوّ عَبْر (الماسنجر). أتأمَّل العالم المخنوق بين ثنايا الجدران الأربعة، لا مكان يناسب الجلوس، المكان تحتله الفوضى والوساخة العارمة.

ـ هذه ليست وساخة سيدتي.

يا ترى كيف يفسِّر هذا المقدار من الوساخة وماذا يسمّيها؟!

ـ ها ها ها... فعلا أمرٌ مضحك، أسمّيها! أسمّيها عبقرية... طبعا.

يا إلهي، أيقرأ أفكاري! أيسمع ما يدور في خلدي حول عالمه الغريب!

ـ ما غريب إلا الشيطان سيدتي.

إنه يضحك بجنون، ينفلت القلم من بين يديه، يحدِّق في الفضاء

الضبابي، ثم يمدّ يده إلى جيب سترته الداخلي، يسحب شريطاً من الدواء، يتناول منه حبة صغيرة بيضاء، يقذفها في فمه بتلقائية، يدور بعينيه ربما بحثا عن جرعة ماء منسية في إحدى عبوات الماء المتناثرة فلا يجد إلا بقايا قهوة في الفنجان قِبالته، يتجرّعها مرة واحدة، ثم يمدّ يده اليسرى نحو درج مكتبه، تسمع صوت خشخشة لأوراق مبعثرة، تخرج كفّه من بينها، وفي الأصابع حبة من الشوكولاته، يفتحها بعصبية، يقضم منها قضمتين متتاليتين، يضعها أمامه، وبشكل تلقائي يعود إلى عمله، كأنه منوَّم.

ـ أنا أكثر صحواً منك سيدتي، وكُفّي عن هرائك، أكاد أنهي ما بين يديّ، وسأتفرّغ لتفحّص ما جئتِ لأجله، وحتى ذلك الحين، يسعدني أن تخرسي، وتتوقّفي عن نقدي ونقد عالمي.

أيراني في فوضاه؟! وما الذي يحدوني لانتظار كائنٍ خرافي، خرج صدفةً من أسطورة ما، مجنوناً، غريب الأطوار، ويسخر من العالم إلى هذا الحدّ المقرف...!!!

أحاول أن أُسرِّب أفكاري بيني وبيني بطريقة لا يقرأها، لكن عبثا... أحاول أن أتوارى أكثر في الضباب السجائري. ما زال منهمكاً في عمله وعالمه، ألمحه يشدّ المقعد خلفه، يقرّبه ويجلس عليه، يمحو شيئاً بالطّامس الأبيض، ثم يضغط على مفاتيح الحاسوب، يكتب جملا متعددة، يصعد صوته مقهقهاً، ثم يعود فيكتب بضع جمل أخرى، يتجه

ببصره يمنة ويسرة، أحسّ كأنه يحدّد مكاني، يهزّ رأسه إلى الأسفل والأعلى ثم يعود إلى أوراقه.

رهبة ما تصيبني، لقد اكتشف وجودي، حتماً إنه يراني، لعلّه يتوعّدني في قلبه، لكن هل يملك قلبا، كأي إنسان؟!

ـ طبعا، ولِمَ لا أملك، ألستُ جديراً بامتلاك الحبّ، سيدتي؟!

خوف أكبر يعتريني، أحاول التراجع قليلا، أَتَسَحّب خطوة خطوة، غير أنه يسرع في إغلاق حاسوبه، يحمل بين يديه ورقتين، يتناول الشوكولاته، يقضم منها قضمة إضافية ثم يتركها، يتجه صوب الباب، يفتحه، يضغط زرّ إطفاء الغرفة بيساره، وقبل مغادرته، يلتفت برأسه قليلا إلى الداخل، يومئ باتجاه مكتبه، ويهمس: يمكنكِ أكل ما تبقى من حبة الشوكولاته. يغلق الباب بإحكام، ويمضي بعيدا...

زهـرة

حلمتْ بزهرة واحدة تأتيها، يدُ شابٍّ تقدِّمها بلطف، مع ابتسامة حقيقية... ليست طمّاعة.

لم تطلب باقة، حسبها واحدة ستفي بالغرض، وسواء أصادف مجيئها يوم عيد الحب أم يوماً عاديّا.

لا تُغرِق ذاتها بأحلام يقظة من هذا النوع، هي أقرب إلى الواقعية، تنشغل بتفاصيل عملها إلى أقصى حدّ، ثُمَّ في جزء آخر من النهار، تتفرّغ لبيتها، في دورة يومية من الحياة، لا تترك لها متّسعاً لتفكّر كثيراً بالزّهور والفراشات.

ومع ذلك كلّه... حلمتْ بزهرة واحدة تأتيها، يدُ شابٍّ تقدمها بلطف، مع ابتسامة حقيقية.

يوميّا، تشدّ عزمها باكرا؛ فثمة رحلةٌ تنتظرها، رحلتها مع نهاراتها المتكررة، ليست رتيبةً إلى حدٍّ كبير؛ فمَنْ يضطر إلى مزاحمة البشر والحياة في الشارع، سيقابل الكثير، وستنتظره المفاجآت، هكذا تحدِّث نفسها باستمرار، كي لا تَسْقُط في رهان «الروتين».

يوميا إذن تشدّ عزمها باكراً، عملُها ليس بعيداً جدّاً، بَيْدَ أنّ زحمة المواصلات تحتاج أن تحسب لها حساباً من صباحها ومسائها، تقف في الطابور، تلتزم به تماما بوصفها امرأة حضارية، أنا حضارية تقول لنفسها، ويكاد دمها يغلي حين ترى الآنسات المُبَجَّلات وغير المُبَجَّلات يتجاوزن الدَّور رَجُلاً رَجُلاً بذريعة الأنوثة التي لا يليق أن تتأخر في طوابير الاصطفاف على مواقف الحافلات، تهدِّئ من روعها، وهي ترى مشهداً متكرِّراً للُطْفٍ مصنوع من ذَكَر «حضاري» يقدِّم أمامه أنثى، ويتجاهل أخرى، والحساب بطبيعة الحال يتّصل بمقدار ما تتمتّع به الأنثى من جمال! أو تتظاهر به من دَلٍّ ودلال!. هذا شكلٌ من أشكال التجارة الرخيصة المبطَّنة والمعلنة في آن، تتمتم في قلبها، أو تشيح بوجهها عن المشهد، أو تتمنّى في قرارة نفسها أن تتمتع بهذه «الفهلوة» ـ هل تعدّ هذه «فهلوة» أم انتهازية أم قلّة حياء؟ تتساءل ـ كي لا تضطر لانتظار دورها نصف ساعة على الأقل يوميا.

إذا توقفت المسألة على الجمال فهذا ليس بمشكلة، بل على العكس، تقول لمرآتها الصغيرة، وهي تعيدها إلى محفظتها في عادة يومية تمارسها

حال وصولها عملها للاطمئنان على هيئتها بعد معركة المواصلات غير العادلة، وسرعان ما تنشغل بتفاصيل أخرى، وتنسى المرآة.

يوميا تقف، تنتظر الحافلةَ المعتادةَ والمجانينَ مِنَ «الكنترولّية»[3]، الذين يقدّمون عروضاً مسرحية ـ مدّعين خفّة الظلّ ـ أمام الركّاب، مقابل ما يُفْتَرَض أن يعيدوه إليهم من بقايا الأجرة، وبذلك تكون الحسبة عادلة بشكل أو بآخر، ينكسر «روتين» الصباحات، مقابل قروش قليلة يخجل الرّاكب من الإلحاح في استعادتها من عاملٍ مسكين، وإن اعتبرها البعض سرقة يومية علنية.

في ذلك اليوم تحقّق حلمها، خرجت ترتدي ثوباً بنفسجيّاً، وتنتعل حذاءً جديداً بكعب مرتفع، يوم جميل تفاءلت به منذ خروجها من المنزل، لم تنتظر كثيراً حتى جاءت الحافلة، وأخذتْ دورها حسب استحقاقها.

عندما حان نزولها، دقّت نافذة الحافلة؛ لتنبّه السّائق كي يتوقف في المكان المناسب، بصعوبة وصلت باب النزول من شدّة الازدحام...! وعند الدَّرَج تعثّرتْ بحديدة لم تعرف وظيفتها في ذلك المكان، تمسَّكتْ بسرعة بسياجٍ على يمين الدَّرَجات مما حال دون سقوطها خارج الحافلة، وتعرّضها للأذى.

(3)الكنترول: مساعد السائق في الحافلات العمومية، وأعماله متعددة؛ جمع الأجرة، وتنظيم الركّاب، وإغلاق الأبواب، وما يشبه ذلك. و«الكنترولية» هو جمع (شعبي) لكنترول.

وجدتْ نفسها في الشارع، حاولتْ أن تسير قليلا، لم تتوازن،خطأٌ ما في مِشْيتها! المكانُ يعجُّ بالناس المترجّلين والصّاعدين، عليها أن تقطع الشارع، لكنْ ثمة شيء ناقص! شيء ضائع!

بحثتْ حولها، نظرتْ نحو الباب الخلفيّ للحافلةِ التي أخذتْ تسير ببطء، ومِنْ هناك حضر شابٌّ يمدُّ يده إليها، مبتسما، يقول: تفضلي يا آنسة، كعب حذائك. وجدْتُهُ قُرْبَ العجلات الخلفية.

تذكَّرتْ أنها:

حَلُمَتْ ...

بسبع أرواح

لم أنمْ تلك الليلة، سبع أرواحٍ تحوم حولي، تتلوّى، وتموء، تسير على الجدران باتجاه السّقف فتمشي عليه، ثمّ تهوي إلى الأرض، فتدور حول السّرير، تئنُّ، تتمطّط فوق «الحِرام» الذي أتغطّى به، ثمَّ تنهض فجأة، وتعود إلى المُواء بصوت مرتفع، تتقارب من بعضها، وتصوِّب عيونها الدائرية نحوي، تنظر في عينيَّ مباشرة، أربع عشرة عينا تحدِّق في عينيَّ، تُبَحْلِق وتُبحْلِق، ثمَّ تزحف فوق سريري ببطءٍ، وتتسحّب تحت «حرامي»، ثِنْتان عن يميني، وثِنْتان عن يساري، وثلاث فوق صدري وبطني ورجلي، تدغدغني، وأنا بلا صوت..

لا أملك صوتاً؟!!... أين ذهب صوتي؟!... أحاول الصّراخ، غير أنّ فمي ينفرج إلى آخره عبثاً. لم تندّ عن زوجي في سُباته أيّ التفاتة، كأنّ شيئاً لا يحدث حوله، كأنّه منقطع عن هذا العالم، لم يُفتَح باب

غرفتي فيأتي أحدٌ يُفَرِّق الأرواحَ مِن حولي...

سبع أرواح، تتمادى في تهديدها، وأنا... يكاد عقلي يخرج من جمجمتي، دون أن يأبه بي أحد، صرختُ بأسماء أفراد عائلتي عبثاً... عبثاً!!

***

أوقفتُ سيارتي قبالة بوابة الحضانة، تأخرتُ عن إحضار أطفالي نصف ساعة، الجوُّ شديد البرودة، والمطر غزير، أتدثّر بمعطف سميك، غير أنّ الهواء يَلْفَح وجهي بشدّةٍ في المسافة الفاصلة بين بوابتَيْ الحضانة الخارجيّة والداخليّة، تسلّمتهم، ومشينا مسرعين.

أدرتُ مفتاح التشغيل، لم تشتغل السيارة، أعدتُ الكَرّةَ ثانية ثم ثالثة فاشتغلتْ بعد أن صدر عنها صوتٌ غريب، دُهِشْتُ قليلا! ليست سيارةً قديمةً لتظهر عيوبها في المطر والبرد! ما تزال ساخنةً بفعل المسافة الطويلة التي قطعتها باتجاه الحضانة، أرجعت «الجير» إلى نقطة القيادة، وأنزلت «الهاند بريك»، سارت خطوتين ببطء، صراحةً صارت دهشتي عارمة، أوقفتُها، نزلتُ ودرتُ حولها دورتين، المطر ما يزال يسقط بعنف، عدتُ فصعدت بين تساؤلات أطفالي، ماما ماذا حدث؟ لماذا لا تسير السيارة؟. لا شيء، كل شيء على ما يرام، أجبتُ.

سرتُ بها متمهّلة، لكنّ شيئاً من الخوف اعتراني لصحبتي أطفالي،

الشارعُ منحدرٌ، شعرتُ أنني أغامر بهم في هذه الآلة الغبية التي فقدتْ صوابها فجأة بلا أي مبرّر، ودون إعطائي إشارةً بأي أعطال. حمدتُ الله أن البيت ليس ببعيد، أوقفتُها، وأسرعنا إلى الداخل.

ولكوني امرأة عاملة، يبدأ دوامي الثاني فور دخولي بيتي، إذ تبدأ مهامّي مع صغاري ومطبخي، أراكض بين هذا وذاك وبين هذه الطنجرة وتلك، لتغدو المائدة بأبهى حللها فور قدوم زوجي.

مرّ النصف الثاني من النّهار، اقترب الغروب إذ تذكرتُ أَمْرَ السيارة، وبكلّ برود، أخبرت زوجي بما حدث وكأنّ أمراً لم يكن... نهض من مكانه، وقال: الآن تذكرتِ إخباري؟!. كان المطر قد هدأ قليلا في الخارج، لبس معطفه وخرج لتفحّصها، صارخا على الأطفال الذين همّوا باللّحاق به، لم أنشغل كثيرا بالأمر، فقد رُحْتُ أُكمِلُ ما تبقى من متطلّبات البيت.

بعد ثلث ساعة، عاد ووجهه يجمع بين السّخرية والغضب، قال: أيتها القاتلة الشريرة، لم أكن أعرف أنك بلا إحساس أو دم، وبإمكانك القتل بدم بارد، كل هذه الرقّة تُخْفي مجرمةً خلفها!

استغربتُ من نبرته، دون أن آخذ كلامه على محمل الجدّ، قلت: ماذا حدث؟ قال وهو يجفّفُ يديه: حاولتُ تشغيل السيارة فاشتغلتْ بصعوبة، أوقفتها، وفتحتُ باب المحرِّك، فإذا بشعر يتطاير منها، أمعنتُ النظر، اللونُ الأحمر ينتشر فوق المحرِّك والمروحة، وثمة جسدٌ

لقطة ممزّقة ... أيتها المجرمة...!

ـ ماذا تقول، قطة؟! قتلتُ قطة؟ قطة؟ لا، لا، حرام، معقول، معقول؟!

ـ ماذا حدث معكِ؟

ـ لا شيء، عدتُ من عملي، أوقفتُ السيارة أمام الحضانة، بضع دقائق، عدت مع الصغار، وإذا بها لا تعمل.

صَمَتَ قليلا، ثمّ أعلن بسخرية فائقة:

ـ طبعا والبردُ شديد، والمحرِّكُ حار، والقطة المسكينة لم تجد مأوىً من البرد إلا دفءَ المحرّك... ألم تسمعي صوتها، ألم تسمعي مواءً مثلا؟!

ـ لم أسمع شيئاً، لكن مفتاح التشغيل لم يدر بسهولة، أنا قتلتُ قطة، وأنا لا يهون عليّ قتل نملة... قطة؟! قطة!

ـ الحمد لله الذي سلّمكم! حزام المروحة مقطوع، ولولا أنَّ المسافة قصيرة جدا...

ـ يا ربّي... لا تكمل أرجوك .

اتّصلَ بورشة صيانة السيارات، جازف (الميكانيكي) بنقل السيارة طوال المسافة حتى ورشته، غاب زوجي بضع ساعات.

الليل أسدل أستاره، وأطفالي ناموا، والمطر عاد ليتساقط بشدة،

ليل الشتاء طويل... رنّ هاتفي، أخبرني زوجي بأنّ السيارة احتاجت بعض التغييرات التي أخذت كل هذا الوقت، وأنهى المكالمة بمحاولة التظرّف: أيتها القاتلة...يا قاتلة القطط.

أخذتُ أذرعُ المنزل جيئة وذهابا، وذهني يتفنّن في تصوّر القطة المفرومة بين حديد محرّك السيارة ومروحته، ويتفنّن في ابتداع ألوان المشهد، حيث الأحمر يغلب على كل الألوان...

***

هل نمتُ تلك الليلة...!

استيقظتُ صباح اليوم التّالي، حين حاولتُ مغازلة زوجي بتحيّة الصّباح، لم أجد صوتي، كان ثمّة صوتٌ آخَرُ غيرُه، يتهيّأ للخروج من فمي...

أشلاء صغيرة جدّاً

كادت قَدَمُها تحطّ على وجهه وهي تنزل درج المكتبة، رفعتِ الصورة عن الأرض، مسحتْ عنها الغبار. صورة شخصية لشاب، يبدو أنها سقطت من جيبه أو محفظته، اقتربتْ من جانب السور لتضعها عليه غير أنها **عادت فجأة تتأمّلها** .

أعوامٌ مَرَّتْ على معرفتها بهذا الشاب، أُلفة عجيبة تلوح نحوه من أطرافها، وجهات جسدها الستّ، ثمة حوارات طويلة في التاريخ والفلسفة وعلم النفس والاجتماع جمعتهما، مساءات طويلة سارا فيها معا ، يتجاذبان أطراف الحلم . **قررت الاحتفاظ بالصورة**.

وضعتِ الصورة أسفل وسادتها بعد أن تأملتها طويلاً؛ بحثاً عن سرّ الألفة المفاجئة لرجل لم تره قطّ!! نامت تلك الليلة نوماً هنيئاً،

حلمتْ به يسير إلى جانبها في مساءات ربيعية، يتحاوران في مفردات العلوم الإنسانية جميعها . **لم تدرك أنها الليلة الأخيرة التي تنام فيها .**

أَرَقٌ رماديٌّ لازمها على مدار أسابيع، هاجسُ البحث عنه وإيجاده بات رفيقها، تبعثرتْ، عيناها تدوران في جلّ الآفاق التي تعبرها، **تبحث عنه في وجه كل رجل يمرّ من طريقها أو يخاطبها.**

قصّتْ على صورته قصص عشق العهد الأموي والعباسي، قرأتْ على مسامعه قصائد ومُعَلَّقات، وفي بضعة أسابيع **أنهتْ معه قراءة كتاب الأغاني.**

مزاجٌ سيِّئ أصابها! انتبهتْ أنّ وجهه لم يغيِّر سَمْتَهُ مذ رأته! انتبهت أنّ انفعاله ظلّ واحداً منذ اللقاء الأول! بدأت تدرك حياد مشاعره نحوها، تأسّفت على حبٍّ حين تَخَلَّقَ وُلِد ميتا، عاتبته كثيرا، قالت له: نبدأ من جديد، نرسم خطة نسير فيها علَّنا نلتقي، لم يغيّر نظرته الجامدة، أو حركة فمه بابتسامته الصفراء، **بحثتْ على دَرَج المكتبة عن صور علّها تجد واحدة له بانفعالات جديدة.**

غضبتْ منه، رَمَتْه أرضا، طوَتْ صورته بضع طيّات، وضعتها في دُرْجٍ للأشياء غير المستخدمة، بعد أن **كانت تدثِّرها مع زهرة حمراء في ديوانها المفضَّل .**

في تلك المرّة وهي تنزل درج المكتبة، حازمةً أمرها، عازمةً على تنفيذ قرارها، أخرجت صورته، بحزنٍ وغضبٍ مزّقتها **نثرتها على الدرجة**

التي وجدتها عليها أوّل مرة، ثمّ أكملتْ نزولها.

سارت بضع خطوات، ثمّ عادتْ فأدارتْ وجهاً دبّتْ فيه دماءُ الحياة فجأة، كان يصعدُ الدَّرَجَ، ويدوسُ أشلاء صغيرة جدّاً، **صرختْ... غير أنَّ الصوتَ غاص في حلْقها... ابتلعتْه ومشتْ.**

الجدار والعصا

- 1 -

الجدار

أعادت أختها شَبْكَ الورقة، وقالت لها: ارجعي إلى صفّك.

ظنَّت لوهلة أنَّ بمقدور أختها أن تمسك بالورقة وتمزِّقها شرَّ مُمَزَّق، بل أن تحمل نثارها، وتقذفه في وجه المعلمة الظالمة، لا أن تعيد شَبْكها بظهر مريولها، وتجبرها على العودة إلى صفّها متحاميةً بالحائط.

آه من الجدران والحيطان، هل تملك سَتْرَ الفضائح؟! سَتْرَ الأحزان والأوجاع؟! هل تملك رفع الظلم، أم تتكفّل باحتضانه وحسب؟؟ ظلّ المثلُ يلاحقها، « امْشِ الحيط الحيط ... وقُلْ يا ربّ السّتر»، حتى قررتْ أن تتحرّر منه.

***

معلمة الصف (الستّ هاجر)، طويلة، سمينة، شقراء بعينين خضراوين، قليلا ما تبتسم. يوم الامتحان تسير بين الأدراج ـ تراقب الصغيرات ـ وكلما توقفتْ عند أحدها، ارتفعت أنظار الطالبة المجاورة باتجاه رأس هذا الجسد الضخم بهيبة وخوف، ترتجف الأيدي الصغيرة الناعمة، ترمش العيون الوادعة بتوجّس، ترتبك وتنتظر ابتعاد الجسد.

***

أنهت الاختبار، لم يكن صعبا بالنسبة لها، أخذت تراجع الورقة قبل تسليمها، تودّ أن تتأكد من صحّة الإجابات جميعها، لا تقنع بغير درجة كاملة، انتبهتْ أنها أخطأت في فهم أحد الأسئلة، فمدَّت جذعها لاسترجاع ممحاتها التي استعارتها زميلتُها المجاورة، وما كادت تعود بهذا الجذع الصغير إلى وضعيّته، حتى لمحتْ ظلاً ضخماً لجسد، رفعتْ بصرها باتجاه وجه ترتسم في جبهته خطوط متوازية من الغضب، قبضةُ يدٍ ذاتُ أصابع قاسية تتجه نحو شعرها المعقود بجديلتين قصيرتين، تنتهيان بشريط أحمر، مصحوبةً بصوتٍ كأنه دويُّ قنبلة، تذكرتْ حديثَ والدها عمّا يسمونه قنبلة نووية، لم تستطع تمثّل صوت القنبلة النووية آنذاك، لم تستوعب الأثرَ الذي تحدّث به والدها لجلسائه، غير أن خيالها استطاع في تلك اللحظة تصوَّر الصوت والأثر... قنبلة نووية!!

ـ يا غشّاشة، بِنْتٌ غشّاشة...

***

الحيط الحيط... غشاشة... بِنْتٌ غشّاشة... غشّاشة... غشّاشة، غشّاشة، الحيط الحيط.

***

شدّتها من كُمّ «مريولها»، وسحبت منها الاختبار، ثم انتشلت ورقة بيضاء عن طاولة الصّفّ، وتناولتْ من دُرْجها قلم تخطيط أحمر، خطّت على وجه الورقة كلمة، والتقطتْ دبّوس مِشْبك من خزانة الصف، وصرختْ فيها: أديري ظهرك...

رنَّ جرس الحصّة، قفي هنا، ولا تتحركي، جمعتْ أوراق الطالبات، وانطلقن يتراكضن باتجاه السّاحة، فقد حان موعد الاستراحة، أديري ظهرك... شبكتْ الورقة على ظهرها، وهدّدتها إن هي مسّتها أو عادت بها منزوعة، وطلبت منها أن تخرج.

***

سارت لا تعرف ماذا جرى، وما الذَّنْب الذي اقترفته لتباغتها المعلمة على هذا النّحو؟! هجوم يشبه القنبلة، ماذا فعلتْ، تساءلتْ!! دموعها تنسرب بصمت فوق خدّها، صديقاتها الصغيرات الخائفات من المعلمة، ينظرن بحزن نحوها، مرّت عنهن، ظهرها محاذٍ للحائط، تحتمي به كي لا تَرى طالباتُ المدرسة الأخريات ماذا كُتب عليه.

***

أسرعتْ كالمجنونة إلى أختها؛ تنشد النجدة والعون منها. أختها ـ التي تكبرها ببضعة أعوام ـ تجالس صديقاتها في الجزء الآخر من المدرسة، يأكلن «السندويتشات»، ويشربن العصير، ويتضاحكن. وصلتْ وهي تسير بطريقة مرتبكة وغريبة كأنها تسير بالمقلوب، نظرتْ إليها، سألتْها: ما بكِ؟ لماذا تبكين؟ فأدارت لها ظهرها. مَنْ وضَعَ لك هذه الورقة؟ غشّاشة...!! «لم أغش، كنت أسترجع الممحاة من زميلتي فظنّت أنني أغش».

نزعت الأخت الورقة، واحتفظت بها في محفظتها، وعادت للأكل والضحك، بضع دقائق ورنّ جرس الجزء الثاني من اليوم المدرسي، أسرعتِ الأختُ تطلب منها أن تدير ظهرها، استخرجتْ الورقة من محفظتها لتعيد شبكها بظهر المريول. سارت، تكاد تجنّ، وهي تحاذي الحائط عائدة إلى صفِّها.

***

من يومها، تكره الجدران والحيطان، وتكره السَّير بمحاذاتها، فهي تدرك منذ نعومة أظفارها، أنها لا تستر إلا الظلم والوجع والأحزان.

- 2 -

العصا

تنطلق (الستّ هاجر) تجاه المدرسة في تمام الساعة السادسة والنصف صباحاً، تسير متهاديةً، محنيّة الظهر، ساهمةً، كأنما تتأمل قدميها، ولا تفكّر فيما هو أبعد منهما، فالنّعاس يظلِّل وجهها الباهت، والقلق يرسم ظلاله حول عينيها.

***

تتراكض طالباتُها ليصلن قبل أن يرنّ الجرس، يلقين التحية عليها على استحياء وعَجَل، فلا تأبه، ولا تُتْعِب شفتيها في الردّ، تصل البوّابة، ترفع رأسها أمام الطالبات، وتحمل عصاها التي كلّفت إحداهنّ بمهمّة إحضارها كلَّ صباح من غرفة المعلمات، وما أن تصل العصا يدها حتى يعلو صوتها، وتبدأ بالصراخ على غير المعتدلات في الطابور، وفي داخلها تبتهج، هذه عصاها السحرية؛ تمنحها السلطة، السلطة المفقودة.

***

لا سلطة لها في منزلها؛ فثمة زوج عصبي يشاركها كل شيء، حياتها... وقتها ... جسدها ... راتبها. وفي الشارع لا سلطة لها إلا على حذائها، تتأمّله كأنه العالم تتابع ذوبانه البطيء، تحسده على احتكاكه الدائم بالأرض. كم تحلم أن تَحْتَكَّ بالأرض، أن تفترشها، وتمدّ جذعها

عليها بحرية ودون رقيب. وحتى سلطتها في إطار مبنى المدرسة سلطة محدودة سرعان ما تذوب، فلا يغدو ثمة قيمة لعصاها فور أن تنادي المديرة عليها، أو تطلبها مع المعلمات لاجتماع طارئ أو دوريّ.

***

تدخل غرفة الصف، وتكون للعصا ضرورتُها، فقد تتكاسل إحدى الصغيرات عن القيام عند دخول المعلمة، أو لا تقف منتصبة القامة، ولا تردّ (الستّ هاجر) تحية طالباتها التي تتخذ شكل تنغيم يزداد طوله مع حروف المدّ؛ فهي تعتبره استحقاقاً خاصّاً بكونها معلمة.

ـ أمل، لماذا لم تقفي؟؟ أَلَمْ تَرَيْني أدخلُ الصَّفّ... هيّا... قِفي عند السبّورة.

تنتبه أمل ممتقعة الوجه، لا يسعفها الاعتذار؛ إذ لا ينفع مع (الستّ هاجر) أي تعليل أو عذر، كيف انشغلت بإخراج كتبها، ولم تنتبه لدخول المعلمة! تحني رأسها، تخرج من دُرْجها الضيّق، تسير باتجاه العصا في الممرّ الفاصل بين الأدراج، تمدّ كفّها بآليّة بحتة، تتدفّأ بثلاث ضربات حامية من عصا (الستّ هاجر)، وتكمل العقوبة بالوقوف مرفوعة القدم اليسرى عند السبّورة، ترمقها زميلاتها بشفقة وخوف.

***

تسير (الستّ هاجر) بين الأدراج ـ ذاهبة آيبة ـ تفتِّش عن أداء الواجب، سعياً ـ ربّما ـ لإيجاد ضحية جديدة، ممَّنْ لم يقمن بواجبهن،

فإذا خاب ظنّها يركبها الجنون، فتطلب منهنّ استخراج ورقة لإجراء اختبار مفاجئ. الفتيات ينزعن طبقا من الورق من منتصف دفاترهنّ دون همسٍ أو امتعاض، لا يُسمع سوى صوت انفصال الورق ... وتظل أملً ـ طبعا ـ معاقبة .

تتعمّد (الستّ هاجر) طرح أسئلة صعبة، تودّ اختبار نجاعة قدراتها في التدريس، تجلس خلف طاولتها، بعد أن تضع العصا أمامها، تراقب طالباتها، تهدّد وتتوعد مَنْ تلتفت إلى اليمين أو اليسار ـ بهدف الغشّ ـ بأقصى العقوبات.

***

يمضي يوم دراسي من حياة المعلمة وطالباتها. مع نهاية الدوام تعيد عصاها إلى غرفة المعلّمات، يخفت صوتها، ويخبو ابتهاجها... وفي تمام الساعة الواحدة تسير (الستّ هاجر) متهاديةً، تجاه المنزل، مَحْنيَّة الظهر، ساهمة، كأنما تتأمل قدميها، ولا تفكّر فيما هو أبعدُ منهما، فالنّعاس ما زال يظلّل وجهها الباهت، والقلق يرسم ظلاله حول عينيها.

أماني سليمان داود

ـ تحمل شهادة الدكتوراه في اللغة العربيّة وآدابها، من الجامعة الأردنيّة، بتقدير ممتاز.

ـ تعمل أستاذة مساعدة في جامعة البترا.

ـ عضو رابطة الكتّاب الأردنيين.

ـ عضو نقابة الصّحفيين الأردنيين.

صدر لها:

ـ الأسلوبيّة والصوفيّة: دراسة في شعر الحسين بن منصور الحلاج، دار مجدلاوي، عمّان ،2002.

ـ الأمثال العربيّة القديمة: دراسة أسلوبيّة، سرديّة، حضاريّة، المؤسسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، 2009.

البريد الإلكتروني: amanisoleiman@yahoo.com